جدلية الاستشراق والاستغراب في الفكر الإسلامي المعاصر
من تماثل الأشكال إلى تضاد المضامين
قراءة في مشروع حسن حنفي

الدكتور: عبد العزيز بوالشعير

تمهيد

يرى حسن حنفي أن الأنا والآخر حقيقة لا يمكن تجاهلها على الإطلاق، ما دام الاختلاف –التنوع والتعدد سمة إنسانية متجذرة في البنية المجتمعية إلى الحد الذي يجعل الهوية الجماعية للشعوب ،مناطة بسمات خصوصياتها المتكونة نتيجة تجارب معقدة،ليس من السهل حصرها في بوتقة جغرافية محددة،ولا في مرحلة تاريخية معينة،كما لا يمكن اختصارها في منطلقات أو مصادر فكرية، ولا في آليات عمل الاحتياجات المادية للشعوب.

فنحن في توصيفنا لـ"لأنا" بناء على الأشياء التي نرغبها فيه،استدعى منا توصيفا لـ"الآخر"،فيه كل ما نكره وجوده فينا،ولذلك غدت العلاقة بين الأنا والآخر مقلقة للغاية، فهي بنظره تجعلنا غير قادرين على توصيف الآخر من منظاره هو،بل يأتي توصيفنا له من محددات الأنا. ومن منظور الأنا يتحدد نعت الآخر، بل يستمد وجوده من تمايزه وغيريته

عن الآخر، والنتيجة هي أن الأنا لا وجود له ،بنية وتشكيلا واستمرارا ،إلا بالحكم على الآخر، كشيء وموضوع للأنا الموجودة في وعي الآخر هي أيضا.

من هنا جاء الاستشراق ليعبر في آلياته وأدائه عن ذهنية ثقافة الهيمنة الراسخة في وعي الآخر(الغرب)، والتي تعكس بجلاء توتر العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب. فالخطاب الاستشراقي فرض على العالم نفحات صدامية ضد بشر،أرغمهم الصدام على التصدي له ذودا عن أنفسهم ودرءا لمخاطر محدقة بهم.

وانطلاقا من ذهنية ونفسية الدفاع عن الأنا أو الذات —كما يعبر عنها البعض– بحثا عما يبرر وجودها واستمرارها المهدد في التاريخ، قصد تعزيز مناعة الذوبان في الآخر وفقدان الهوية والإنية، أما عاصفة الدراسات الاستشراقية والهجمة الثقافية الشرسة التي أملتها ظروف العولمة، جاءت محاولة حسن حنفي الرامية إلى تأسيس علم جديد في مقابل العلم القديم المتمثل في الاستشراق ،وهذا العلم الجديد هو علم الاستغراب.تماهيا مع الاستشراق ومبررات وجوده في التاريخ. وهذا من منطلق الدفاع عن الذات ،ودرءا لمخاطر الذوبان في موجة الحداثة والعولمة،من منطلق دراستنا ومعرفتنا بالغرب وآليات تفكيره وأنماطها ومنطلقاتها وسماتها وأهدافها الظاهرة والباطنة.فكما كنا نحن موضوعا للبحث في الفكر الغربي يكون الغرب موضوعا للبحث في الفكر الشرقي.

من هنا وضع حسن حنفي مهمة على عاتقه ،تتمثل في إيقاظ وعي الأنا من سباتها، وتحذيرها من المخاطر المحدقة بها،بحجة أن الأنا قادر على دراسة وضع الآخر،في مقابل قدرة الغرب على دراسة وضعنا من جميع جوانبه.فعقدة تفوق الغرب(الآخر) مردها إلى دراسة الغرب لحضارة الشرق،ونحن لحد الآن لم نستفد من دراستنا لحضارة الغرب.

والغرض من هذه الدراسة برأي حنفي هو الانتقال من حالة التماثل مع الغرب إلى حالة التضاد معه ،كون الأنا تنتمي إلى نسق مغاير لنسق الغرب.

والإشكال الفلسفي الذي يطرح نفسه هو: هل الأنا قادر على دراسة الآخر واحتوائه وهو لم يحتو ذاته بعد؟ بمعنى آخر: هل يمكن أن يكون الغرب موضوعا للفكر الشرقي (الإسلامي) وهو لم يدرس بعد حضارته الشرقية كما ينبغي؟ وكيف يكون التضاد مع الآخر مرجّحا من حيث المبدأ؟ وما مدى معقولية هذا التصور؟ وما هي حدود العلاقة بين الأنا والآخر؟ وهل من المعقول اعتبار الاستشراق كله استفزاز للأنا وبالتالي ينبغي الرد عليه بالاستغراب في مفهومه وآليات عمله ومنطلقاته المتضادة مضمونا المتماثلة شكلا؟

أولا: معنى الاستشراق

يعتقد البعض من الباحثين أن الاستشراق هو موضوع دراسة الآخر الغربي للأنا الشرقية، والذي يحيل إلى معنى التفوق الحضاري للغرب على الشرق. فحالة التخلف التي يعيشها الشرق جعلته عرضة لأن يقال فيه ملا يعرفه عن نفسه من آخر استعجل تقييم ذاته، فتأخر تقويم الأنا للآخر(الغرب). فتقدم المجتمع الغربي وتأخر العالم الإسلامي،حقيقة لا يمكن تجاهلها ،ولها تداعيات على من يعيش في فضاء لا يخرج عن مدار فعل ازدرائهم لضعفنا،كما انبهارنا بقوتهم،وهذه حقيقة تؤثر ولاشك على موضوعية المستشرق وعلميته،انحيازا على ما يستشف منه تحامل على ما هو أقل شأنا منه،كما يؤثر في آلية الرد عليه،مهما تخفى الرد وتنزّه عن مفاعيل تخلف واقعه،أو مهما تجرّد من علائق الانبهار بقوة

وتفوق واقعهم وقدرته الفاعلة فعلا أدى بنا إلى انفعال لا واع على ما في رفضنا لهم من تماه مع رفضهم لنا ،والى ما في توجهنا إليهم من تماثل مع توجههم إلينا.[1]

الاستشراق هو دراسة لتاريخ ،وشخصيات ،وأحداث حدثت في الشرق "كما "خلقه الغرب"،أنه اكتناه صارم لأسئلة جذرية في الثقافة والإنسان ،أسئلة تدور حول مفاهيم "الحقيقة" و"التمثيل" ،القوة وعلاقات القوة،وعي الذات والآخر،حول التصورات التي ينميها الإنسان لذاته وللعالم،وللتمييزات التي يقيمها بينه وبين الآخر،وهو أيضا دراسة في الآلية التي تتصلب بها هذه التصورات والتمييزات إلى معرفة،معرفة تغدو —حين تتم في سياق القوة والسلطة سياسيا واقتصاديا وثقافيا–إنشاء يدّعي لنفسه مقام الحقيقة، ويحجب بشكل مطلق حقيقة كونه تمثيلا لا أكثر،حقيقة كونه يجسّد وعي الذات للآخر أكثر مما يجسّد الآخر، إنشاء ذا طاقة مولّدة للذات تفعل ضمن شروط نابعة من الذات المعاينة بالدرجة الأولى،ثم من الآخر،موضوع المعرفة،بدرجة ثانية وثالثة فقط.[2]

إن الاستشراق كما يرى" إدوارد سعيد" هو ببساطة المادة التاريخية والحيّز المميّز من ثقافة الغرب اللذين يتناولهما بالتحليل،إنه الحالة المعيّنة التي يعاينها،إنه المثل الذي يركز عليه منظوره التحليلي النقدي،بوصفه"الخارجي" و"المقصى المستثنى" و"المستعرض الصامت"

1- نديم نجدي:أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر–ادوارد سعيد.حسن حنفي.عبد الله العروي،الطبعة الأولى،دار الفارابي،بيروت،لبنان،2005م،ص 9،11.

2- إدوارد سعيد:الاستشراق–المعرفة.السلطة.الإنشاء،ترجمة:كمال أبو ديب،الطبعة السادسة،مؤسسة الأبحاث العربية،بيروت،لبنان،2003م،ص1،2.

و"المعجبة المثيرة" أما داخل يمارس استعراضه وإقصاءه وتمثيله. الاستشراق هو المعادل الفعلي للمادة التي تتمثل في نظام فوكو في الجنون،أو المرأة،أو الأطفال،أو المنحرفين...الخ.[1]

بيد أن أهم هذه التصورات قد يكون التصور الكلي لتجسد علاقات القوة وممارسة السيطرة في مفهوم المعجبة والاستعراض:حيث يكون موضوع القوة (الأدنى،المستضعف) مادة استعراضية صامتة على مسرح ما،مادة تمثل استعراضيتها في الوقت نفسه نمطا من العقوبة التأديبية التي يمارسها المستعرض(الأعلى،الأقوى)،بحيث تصبح العقوبة التجسيد الأسمى لقوة السيد وسيادته.وهكذا ترتبط القوة،في أعلة صورها،بامتلاك القدرة والطاقة على تقديم معجبة:فرجة مثيرة مفرطة.هكذا يمارس العقل استعراض معجبة الجنون،ويمارس المستشرق استعراض معجبة الشرق.[2]

من معاني الاستشراق أيضا،كونه تصور الغرب للشرق، بما هو فضاء جغرافي ثقافي متميز، وصحته. يدرس الإشكالات الفكرية، والاهتزازات المفاهيمية والاضطرابات الواقعية، والمفارقات الأساسية التي قام عليها التطور الحضاري للشرق،علميا وثقافيا وسياسيا وعسكريا. وطريقته في معاينة الآخر والتفاعل معه،ونمط العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية التي كانت يقيمها مع الآخر.ويتم عرض هذه المنظومات الشرقية عرضا فكريا نقديا، يمارسه الغرب في فهم ذاته وفهم الشرق. وينتهي إلى طرح إشكالية العلاقة بين الذات والآخر باعتبارهما جوهرين مختلفين. من حيث المنطلقات والتصورات والمناهج والأهداف.

1- ادوارد سعيد:الاستشراق،ص 4.

2- إدوارد سعيد:الاستشراق،ص 3.

إذ هناك كيانين مشكّلين، من حقائق الطبيعة، والثقافة والدين والحضارة وعرقيا، وبالتالي فنحن أمام منظورين خارجين يعاين كل طرف منهما الآخر، بحثا عن الحقيقة المحجوبة. وظلت هذه العلاقة تتقلب بين الإلغاء حينا والتقارب حينا آخر.أو بمعنى آخر ظلت العلاقة تتأرجح بين إثبات لوجود آخر ونفيه.

لقد نجم الاستشراق كرد فعل قام به الغرب ضد الشرق بوصفه مشروطا بمعطيات تاريخية دينية وفكرية واقتصادية. ثم إنه (الشرق) خالق التصورات والمناهج التي عوين من خلالها الشرق(الأنا)، والتي أفرزت تيارات فكرية وعلمية ومنهجية أساسية في الغرب نفسه لا في الشرق،والشرق باعتباره جوهرا سرمديا ،موحّدا متناغما ،كليا،الشرق الذي لا يسمح بنشوء ملامح فردية أو حركات تاريخية فيه.أنه تمركز حول الذات،فهو لا يقبل إلا بالثابت ،بالمخصوص،المتميّز.أنه منظومة متفردة،لها كيانها وجوهرها المغاير للآخر (الغرب).من هنا جاء الاستشراق جرد فعل غربي ليكشف عن المكوّنات الجوهرية لبنية أو منظومة فكرية معينة:أنه يكشف جدلية فاعلية المعاين في المعاين(بالفتح)،كما يكشف أيضا ،فاعلية المعاين في المعاين(بالكسر)،بمعنى يقف على الطبيعة الثنائية للفاعلية بين الأنا والآخر.من هنا يصبح الاستشراق البنية الفكرية الغربية عن الشرق ممتلكا للخصائص التي عاينها في الشرق (البنية الفكرية الغربية).وتصبح المعرفة بالشرق وشرقيته،جزئيا،شرقنة للذات والمنهج الغربيين.غير أن الملفت هنا ،هو أن الغرب تصور الشرق ودرسه تصورا ت تفيية تنميل نظري عرقيا، فوقيا، متجذرة في القوة واتحاد القوة بالمعرفة.والنتيجة التي أفضى إليها الاستشراق هنا هو أن الشرق لم يكن في وعي الغرب ،ذلك الخارجي فقط،بل امتدادا للشاذ والمنحرف والمجنون بلغة "ميشال فوكو"،امتداد للمستضعف داخل الغرب:للآخر

الداخلي أيضا.[1] حتى أن بعض مفكريهم يقولون"...لا نستطيع أن نأمل بتشكي أولا كيف ساهم اقتصادهم الماضي وتاريخهم الاجتماعي في إبراز تخلفهم الحالي."[2] فما أنجزه الغرب بالتدريج على مدى ثلاثة قرون ماضية ليس سهلا على الشرق أن يحققه بسرعة في القرن الحالي...[3]

يرى البعض أن الاستشراق خرج من رحم الأقاويل والمماحكات الإيديولوجية التي جابهت بها أوروبا المسيحية إسلام الشرق في مرحلة كان فيها الغرب يعيش فيها مرحلة مخاض لولادة حضارته الحديثة.لذا يمكن القول ان الاستشراق قديم قدم اهتمام الغرب بالبحث عن هويته الخاصة التي حالما رست على مسطح، برز الاستشراق التقليدي كأحد تجليات قلقه وخوفه من أن يبقى متلقيا للدعوات الحضارية الآتية من الشرق،ذلك الغرب الذي أضحى حقل جدل ساعد على ظهور مناهج فكرية جديدة كالانثروبولوجيا، والفيلولوجيا (فقه اللغة) وغيرها مما تخزّن في شرايين حضارة الغرب المعاصر، عوضا عما أمدته حضارة الشرق من معارف كان لها دور لا بأس به في دفع عجلة تطور الفكر الغربي إلى مستوى تقدم به على من كان متقدما عليه،لتبقى حضارة الشرق شاهدا على ما كان

1- راجع:إدوارد سعيد:الاستشراق،ص 6.

2- تيمونز روبيرتس-أيمي هايت:من الحداثة إلى العولمة-رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعي، الجزء الأول،ترجمة:سمر الشيشكلي،مراجعة: محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة،العدد 309،الكويت، رمضان 1425هـ-نوفمبر 2004م،ص244.

3- المرجع نفسه،ص 198.

في حوزة إنسانها من أفكار تمسّك بها وحافظ عليها،ليتخّذ بعدها كمادة أنثروبولوجية لقياس ما كان عليه التفكير الغربي منذ زمن بعيد.[1]

لقد درس الغربيون الإسلام وبحثوا فيه —كما يقول إسماعيل الفاروقي في كتابه أطلس الحضارة الإسلامية–وكأنهم لم يسمعوا بالظاهراتية قط.[2] فهم يجدون في "التوقف" الذي تتطلبه الظاهراتية ما يبدو لهم مطلبا مستحيلا،ذلك المبدأ الذي يفرض تعطيل جميع ما سبق من مفاهيم وأحكام وميول في تفسير المعطيات في ديانة أو ثقافة وفي استخلاص معانيها.ومع أن المستشرقين قد استخدموا هذه الطريقة في تحقيق مخطوطات قديمة،أو التعرف على العاديات والأعمال الفنية ووصفها،فإنهم لم يبرهنوا على قدراتهم على "التوقف" عند تفسير الدين والثقافة في الإسلام.فالتزامهم بالعرقية المعرفية،أو مفهومهم عن الواقع كما تفرضه العرقية،يحملهم على قبول الإقليمية مذهبا في فهم التاريخ.[3]

ثانيا:آثار الاستشراق على الفكر الإسلامي

1- نديم نجدي:أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند ادوارد سعيد.حسن حنفي.عبد الله العروي،ص 73،74.

2- الظاهراتية تيار فلسفي أوروبي أسسه إدموند هوسرل1859/1938م،تقترح الظاهراتية طريقا جديدا للمعرفة الفلسفية ينفصل بوضوح عن العلم والعلوم الإنسانية.يزعم العلم معرفة العالم موضوعيا.(راجع:جان فرانسوا دورتيي(إشراف): فلسفات عصرنا–تياراتها مذاهبها،أعلامها، وقضاياها، ترجمة:إبراهيم صحراوي، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، 1430هـ/2009م، ص 515.

3- إسماعيل الفاروقي، لويس لمياء الفاروقي:أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة: رياض نور الله، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1419هـ/1998م،ص 26.

يرى "مالك بن نبي" أن الكتابات الاستشراقية في داخل الفكر الإسلامي ينبغي أن تصنف إلى طريقتين:

أولا: حسب الترتيب الزمني.

ثانيا:حسب توجهاتهم العامة التمجيدية المادحة أو الجدالية المشككة بوصفهم مادحين للحضارة الإسلامية أو قادحين فيها.

فبعض الكتابات " استطلعت أن تحقق بعض التأثير على ثقافتنا ،غير أنها لم تمس مجموع أفكارنا،لأن نظامنا الدفاعي الذاتي في الثقافة كان يشتغل تلقائيا تجاههم كما حدث أيام طه حسين".

"وفي المقابل فإن أعمال المستشرقين التمجيدية كان لها تأثير أكثر اعتبارا على مسيرة الأفكار في المجتمع الإسلامي المعاصر،لحد أننا لم نظهر أية مقاومة تجاه هذا التأثير.إن نظام دفاعنا كان متخلفا في هذا الاتجاه،لأنه كما هو واضح لم يكن لدينا أي مبرر للدفاع عن أنفسنا كما هو الشأن في الحالة السابقة."[1] وكان من نتائج هذا الموقف اعتبار التاريخ الأوروبي والثقافة الغربية إطارا مرجعيا لفهم الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي والإحالة إليه باستمرار هو نوع من التغريب النظري والمنهجي.وهذا يكشف عن موقف حضاري أبعد وأعمق وهو فهم الأنا أو الذات بالإحالة المستمرة إلى الآخر أو الغير وكأن الأنا ليس لها إطارها النظري الخاص بها ولا يمكن فهمها بتكوينها الداخلي ،وكأن الأنا لا

1- مالك بن نبي:التوجهات الاستشراقية وأثرها في تشكيل الفكر الإسلامي المعاصر،ترجمة:محمد أمزيان، مجلة المنعطف، العدد 18-19 السنة 1422هـ-2001م، وجدة، المغرب، ص 55،56.

تعكس نفسها إلا في مرآة الآخر،ولا تعي ذاتها بذاتها إلا من خلال الآخر كمقياس ومعيار للحكم.[1]

والملفت للانتباه هو أن جل الكتابات الاستشراقية تكرّس مركزية الغرب الأوروبي المسيحي في مقابل الأطراف ممثلا في آسيا وإفريقيا الإسلاميتين.كما يؤسس الاستشراق لمقولة صراع الشرق والغرب وما يمكن أن ينجر عن ذلك من مخاطر سياسية وعسكرية وثقافية واستراتيجية. فقد ولد الاستشراق في فضاء ذلك الصراع الطويل،وهو يعبر عن نظام معرفي يعنى بتشكيل صورة نمطية للشرق في الوعي الغربي، تعيد هذه الصورة إنتاج ما ورثه الإنسان الغربي من أوهام وأساطير حول الشرق وتراثه وتاريخه ومعارفه.

كما كان من نتائج الاستشراق تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الوعي والمخيال الغربي، فمثلا عمل المستشرقون على الخلط بين الإسلام كعقيدة وشريعة ومنهج حياة وبين سلوكات وتصرفات وواقع المسلمين.فنحن "...نجد في كتابات كثير من المؤلفين خلطا بين الإسلام والمسلمين. ويفهم أمثال هؤلاء المؤلفين تراث المسلمين في الفكر والعمل والتعبير على أنه من مكوّنات الإسلام نفسه، تماما كما ينظرون إلى المسيحية واليهودية على أنهما لا تزيدان إلا قليلا على تراثهما التاريخي. حقيقة أن الإسلام يختلف عن تاريخه مسألة لا تسترعي انتباههم، لأنها تتعارض مع ما يعرفون عن تاريخ المسيحية واليهودية.فالتمييز بين الإسلام وتاريخه يبدو لذلك معارضا لافتراضاتهم التجريبية واتجاههم الذهني.ويبدو أنهم لا يدركون أن الإسلام خلافا للمسيحية واليهودية،قد ولد مكتملا–مكتملا في رؤية نبيه،مكتملا في الوحي القرآني الذي تلقّاه ،ومكتملا في السنّة التي يمثّلها. وليس هذا بقول أحد من البشر، بل هو نص قرآني(سورة آل عمران، الآية 19) لذلك فهو وحي من الله.

1- حسن حنفي:ما ذا يعني علم الاستغراب،ص 66.

والقول بأن الإسلام دين الله المكتمل الأول لا يجعله متماثلا مع تاريخ المسلمين أيا كان.فهو المثل الأعلى الذي يسعى إليه جميع المسلمين ويجب أن يعرفوا به ومن خلاله."[1]وهذا الخلط من شأنه إضعاف علاقة المسلمين بالإسلام ويحد من امتداد وانتشار الإسلام في العالم الغربي.ولهذا جاء بعض الكتابات من بعض مفكري العالم الإسلامي للرد على هذه الشبهة ،فناقشت المسألة ودعت إلى ضرورة الفصل في القيم وعدم الخلط في تقييم الفكر والمبادئ بقيم حامليها والمتصلين بها.[2]

فالتطور الثقافي –كما يقول مالك بن نبي– في العالم الإسلامي يمر بمرحلة خطيرة، إذ تتلقى النهضة الإسلامية أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية."هذه الأفكار الفنية لا تقتصر على أشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يتعوّدها الشباب المسلم شيئا فشيئا،بل إنها تمس أيضا وبطريقة غامضة،ما يتصل بالفكر وما يتصل بالنفس،وفي كلمة واحدة:ما يتصل بالحياة الروحية.

ويواصل مالك بن نبي قائلا:" وإنه لمما يثير العجب أن نرى كثيرا من الشباب المسلم المثقف يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية،وأحيانا بدوافعهم الروحية نفسها،من خلال كتابات المتخصصين الأوروبيين."[3] والغرابة تكمن أيضا في وقوع الشباب المسلم في نوع من الوثنية ذات المظاهر المتعددة والأشكال الحديثة"...فمن ذلك تقديس

1- إسماعيل الفاروقي،لويس لمياء الفاروقي:أطلس الحضارة الإسلامية،ص 26،27.

2- حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421 هـ، 2000م، ص 5،8.(الكلام مقتبس من نص مقدمة المحرر:عبد الجبار الرفاعي).

3- مالك بن نبي:الظاهرة القرآنية، ترجمة:عبد الصبور شاهين، الطبعة الرابعة، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق سوريا، 1987م، ص 54.

الشعب تقديس تنزيه وتأليه واعتبار البداية والنهاية والغاية القصوى والقيمة المطلقة في حين أن الشعب يحتاج هو نفسه إلى غاية ومثل أعلى وليس الشعب مخلوقا كاملا بل هو في حاجة إلى كمال نقصه والتطور نحو مرحلة أكمل وحالة أمثل،إنه محتاج بمجموعه أن يتوجه نحو الكمال المطلق نحو الله. "[1]

لقد أوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الإسلامية،محددا بذلك اتجاهها التاريخي. وهذه تعدّ أزمة خطيرة تمر بها الثقافة الإسلامية،وقد كان لهذه الأزمة في اعتقاد "مالك بن نبي" مظهرا، ويعني به تأثير دراسات المستشرقين على الفكر الديني لدى الشباب الجامعي، الشباب الذي يتجه إلى المصادر الغربية، حتى فيما يخص معارفه الإسلامية الشخصية.[2]

لقد فقد هؤلاء الشباب نتيجة الاستشراق القدرة على الحلم والثورة وتغيير الواقع وإصلاحه، لم يعد الشباب الجامعي والمثقف العربي والإسلامي متحمسا لرفع القلم ومحاولة فهم واقعه المتخلف،ومن ثم البحث عن حلول لأزماته وأمراضه،قصد الوقوف على عوامل البناء الحضاري. وحتى وإن وجد من يؤمن بالتقدم،فإن نموذجه المعرفي الغربي –كما يقول عبد الوهاب المسيري رحمه الله–باعتبار "... التقدم هو الركيزة الأساسية للمنظومة المعرفية (المادية) الغربية الحديثة، وهو الإجابة التي تقدمها على الأسئلة النهائية إلي يواجهها الإنسان: من أنا؟ وما الهدف من الوجود في هذا الكون:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب المنظور الإسلامي؟أم معرفة الحقيقة والذات وفعل الخير وتحاشي الشر حسب

1- محمد المبارك:نحو إنسانية سعيدة أو حلقات من نظام الإسلام،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،دمشق،ص 134.

2- مالك بن نبي:الظاهرة القرآنية، ص 55.

المنظور الهيوماني الإنساني الغربي؟ ومن الواضح أن الحضارة الغربية الحديثة قد قبلت بالتقدم باعتباره الغاية والمرجعية النهائية."[1] وأن منظومتها المعرفية كمشروع تعيد تأمل كيانها ونتاجها عند كل تحول مطلوب،"..دون أن يحس حاجة قصوى إلى مضاهاته(المشروع) بمشروع آخر.إذ أن الحضارات اللاتقنوية التي تجاوزه، لها دور تبعي، وليس تنافسيا.ولذلك فلا أهمية لها،ولا اهتمام بها على مستوى المصير الكوني لمشروعه.إنما ينبع هذا الاهتمام البالغ لدى هذه الحضارات اللاتقنوية بالآخر،ليس بكونه المهدّد والمرفوض والمرغوب به إلى أقصى الحدود في الآن ذاته،فحسب،ولكن لكون هذا الأخير امتلك وحده،ما كان يجب أن يمتلكه الجميع..."[2]

ومفهوم التقدم في المنظومة الغربية يقوم على جملة من المنطلقات المحددة بسمات واضحة هي:

أ–يستند مفهوم التقدم إلى مفهوم الطبيعة /المادة،فهو مثل قوانين الطبيعة عملية حتمية تتم رغم إرادة الأفراد وخارجها ولا يمكن لأحد إيقافها.

ب–التقدم عملية عالمية خطية ذات اتجاه واحد تتم حسب قانون طبيعي واحد يتبدّى في كل زمان ومكان وفي جميع المجتمعات حسب متتالية واحدة تقريبا.

1– تحرير عبد الوهاب المسيري:إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد–المقدمة فقه التحيز"،الطبعة الثالثة،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،هيرندن–فرجينيا–الولايات المتحدة الأمريكية، 1418هـ/1998م، ص74،75.

2– مطاع صفدي:نقد العقل الغربي الحداثة وما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 199أهم، ص 52.

ج–يفترض مفهوم التقدم وجود تاريخ إنساني واحد لا إنسانية مشتركة تتبدى في تشكيلات حضارية وتاريخية مختلفة ومتنوعة.

د– تعتبر المجتمعات الغربية الأوربية هي ذروة هذه العملية التطورية العالمية الطبيعية،ومن ثم في النموذج الذي يحتذى به.

هـ–عقل الإنسان غير محدود، ولهذا فهم يتحدثون عن التقدم اللانهائي.

لقد تناسى هؤلاء المقلّدون أن هذا التقدم وفق هذا النموذج المعرفي الغربي،يصبح مرجعية بلا مرجعية أو يصبح مرجعية ذاته،ومن ثم فهو الوسيلة والغاية،لأن معيار التقدم في نهاية الأمر هو زيادة المنفعة وتعظيم اللذة لأكبر عدد ممكن من البشر.[1]

إن من شأن الحضارة العالمية المعاصرة توظيف كافة النظريات العلمية ومناهج التحليل المختلفة للكشف عن ظواهر السلوك الإنساني. ومن هنا تطبق على الإنسان مناهج علم النفس الاجتماعي التحليلي وفي إطار يحتوي كل متاحات الدراسات الانثروبولوجية أو ما نترجمه بعلم(الأناسة) بالإضافة إلى التاريخ واللغويات أو علم (الألسنية). وهذا النوع من التحليلات يعتبر من أخطر الأسلحة المعاصرة بالنسبة للقوى التي تعمل لصالح مجتمع معين(قوى التطور والتغيير) والقوى الأخرى التي تعمل ضد المجتمع(قوى الإحباط والتدمير).[2]

إن الأعمال الاستشراقية تتموقع بالضبط في هذا الإطار الذي يحمل عنوان"الصراع الإيديولوجي" ،وهذا يدعونا إلى التفكير بشكل دقيق في الكيفية التي يجب أن يكون عليها

1– عبد الوهاب المسيري: فقه التحيز(المقدمة)،ص 76.

2– محمد أبو القاسم حاج حمد:العالمية الإسلامية الثانية–جدلية الغيب والإنسان والطبيعة–المجلد الثاني،الطبعة الثانية،دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،1416هـ،1996م،ص 15.

عملنا الفكري في هذا الإطار...نحن مدعوون في المرحلة الراهنة لنمونا إلى أن نحدد بأنفسنا موضوعات تفكيرنا ،ويجب علينا،أن نعود إلى أصالتنا الفكرية،ونحقق استقلالنا في مجال الأفكار كما في المجال الاقتصادي والسياسي."[1]

فلو عدنا مثلا إلى العمل الذي قام به "محمد البهي "في كتابه" الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" نجده يبيّن أن بعض تيارات الفكر الإسلامي الحديث نشأت تحت تأثير بعض فرضيات المستشرقين ومفهوماتهم،حيث نبّه إلى أن جهود المستشرقين ترمي إلى تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية،وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوروبي والرضا بولايته،ولهذا فإن كتابات المستشرقين تسعى إلى إضعاف القيم الإسلامية،وتمجيد القيم الغربية،وذلك عبر شرح تعاليم الإسلام شرحا يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام.[2]

ولهذا فقد تسرّبت إلى الوعي العربي والإسلامي الكثير من فرضيات ونظريات ومناهج المستشرقين ،وخاصة لدى النخب الجامعية والدوائر البحثية،وكان من نتائج هذا التسرب تشبّع الكثير من المفكرين والمثقفين والباحثين الجامعيين بروح الغرب،وصاروا يتنفسون برئته،ويفكرون بفكره وعقله.[3] لقد نسى هؤلاء الشباب قول الفيلسوف "هكسلي" ما خلاصته:"لا تستريح البشرية حتى يتجرد الإنسان من عوائقه ونزعاته،و لا

1- مالك بن نبي:التوجهات الاستشراقية وأثرها على الفكر الإسلامي المعاصر،ترجمة:محمد أمزيان،مجلة المنعطف،العدد 19/18السنة1422هـ،2001م،وجدة –المغرب،ص 75.

2- يمكن الرجوع إلى: محمد البهي:الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي،ص 111 وما بعدها.

3- يمكن العودة إلى كتاب:أبو الحسن الندوي:الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

يكون متجردا إلا إذا ارتبط برباط آخر ألا وهو الله".[1] والضامن الوحيد الذي يحمي الشباب من مثل هذه التأثيرات هو العقيدة التي تكشف الحجب الكثيفة بين الإنسان والكون والحضارة المعاصرة فتبيّن أن كل ما صدر عن المخلوقات من حوادث إنما مرده إلى الله وهو صادر عن الله،لأن العقيدة هي الأساس الفكري والنفسي العميق المتغلغل في أعماق النفس والوجدان ،"فهي موقظة للضمير وشاحذة للحساسية الإنسانية تجعل من الإنسان إنسانا يخشى الله في كل عمل يؤديه أو حركة يقوم بها".[2]

ثانيا: معنى الاستغراب

أطلق بعض الباحثين مصطلح"الاستغراب" في مقابل الاستشراق، وجرى استخدام الاستغراب لدى بعض الدارسين باعتباره الوجه الآخر النقيض للاستشراق،قبل ما يناهز ربع قرن،ثم تطورت صياغة مفهومه ،فأضحى بمثابة اتجاه بديل لدراسة الحضارة الغربية ومسارها وتراثها ومعارفها من منظور شرقي،أو هو محاولة لدراسة الآخر من منظور الأنا،مثلما يعبّر حسن حنفي الذي أصبح أحد أبرز الداعين للاستغراب.وقد وجدت هذه الصيغة أسسها ومرتكزاتها المنهجية في كتاب الدكتور "حسن حنفي" "مقدمة في علم الاستغراب"الصادر سنة 1991م.

وقبل أن يتبلور مفهوم واضح المعالم للاستغراب ،كان مفهومه يعني الانفعال والتأثر بالفكر الغربي واستنساخه كما هو،وهو هنا ليس بعيدا عن الاستشراق وأهدافه،الرامي إلى اجتثاث الهوية الحضارية للأنا أو الذات.وهو ما عبّر عنه البعض بالدعوة إلى تماثل الأنا بالآخر. وحجة هؤلاء تنبثق من كون الآخر يعيش زمن الحداثة التي يحكمها منطق الذاتية

1- هكسلي:الغايات والوسائل،نقلا عن:محمد المبارك:نحو إنسانية سعيدة،ص 118،119.

2- محمد المبارك:نحو إنسانية سعيدة، ص 117،118.

والعقلانية المفضي إلى العلمانية،واعتبار الذات مركزا ومرجعا لكل حقيقة،تتبلور فيها ثقافة عقلانية تشكل أرضية وإيديولوجية مؤسسة لفكر الحداثة.الذات التي تنتظمها قوانين عقلانية ومعقولة،بحيث أن بروز الإنسان كذات يتجلى في خضوعه لأحكام العقل فقط،والنتيجة هي أنه لا يمكن تصور الذاتية بمعزل عن العقلانية،فالذات هنا ،وبهذا المعنى تتمركز حول الإنسان وفاعليته لا غير.[1]

ولما كانت العقلانية تشكل الدعامة الأساسية للحداثة التي ارتكزت عليها المجتمعات الغربية الحديثة،فإن تشخيص مسارها يقتضي ترتيب هذا المسار وفق ثلاثة أزمنة،نوجزها كالتالي:

1-زمن العقلنة السعيدة الذي تحرر فيه الإنسان من هيمنة التقاليد وعمل خلالها على نشر العقل والعقلانية على المستوى الكوني.

2-زمن انبثاق حداثة يخضع فيها الأفراد لمقتضيات المؤسسة الحديثة ولقوانينها ومعاييرها، بحيث سيتم التقليص من حجم الحرية الفردية وفق ما تحدده الأدوار الاجتماعية.

3-زمن عدم اكتمال العقلنة (l'inachèvement de la rationalisation)والذي يبحث فيه الإنسان عن سبل جديدة لبلوغ المعنى وتحقيق الغايات.[2]

1- عزالدين الخطابي:أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية،الطبعة الأولى،منشورات الاختلاف،الجزائر،الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت،لبنان،مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،1430هـ،2009م،ص 40،39.

Danilo Martuceli,"Sociologie de la modernité», Folio; Essais;1999, p229, 230. 2

نقلا عن: عزالدين الخطابي:أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية،ص 41.

وكان من نتائج هذه الحداثة أن ظهر صراع بين الدين والعقل،"...و في الصراع مع الدين، أراد العقل أن يبحث عن تبريره الذاتي، وتم الحكم على الدين ونقده بواسطة حد مخز اخترعه أسلافنا الرومان لسد الحاجة وهو:الخرافة...كانوا يطلقون اسم الخرافة على أشكال الدين ذات المنحى الشرقي..."[1]

فصورة الشرق في وعي الغرب هي أنه يمثل بدايات الوعي الإنساني،الإنسانية في مرحلة الميلاد، بلا وعي ولا إرادة ولا عقل،مجرد كائن عضوي أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أكثر تقدير.ليس به فكر أو علم،إنسانية مجردة مثل الأحجار،وهو موطن السحر والدين، والخرافات والأوهام،وظلام المعابد وتعاويذ الكهان.كل ما فيه تخلف في الملبس والسكن والمأكل والمشرب وسائر نواحي العمران، كثافته السكانية أحد مظاهر تخلفه، نسل وفير، وكوارث طبيعية من الفيضانات تحصد الألوف.لا يعرف حرية الأفراد بل ديكتاتورية الحكام على ما هو معروف في "الاستبداد الشرقي".[2]

بهذا المعنى سيفهم الدين كإيديولوجيا ووعي زائف،كشكل مسكّن من السلوك معوض في عالم بدون قلب،شكّل بديل عن الغبطة والسعادة،في إطار سوسيو-إقتصادي غير ملب للرغبات وبئيس،والذي يجب البحث عن معناه وحقيقته وإيجادهما في صلب صراع الطبقات وعلاقات الملكية.وهو المعنى الذي نعت به الدين عند كارل ماركس

---

1 أوجينيو ترياس: التفكير في الدين الرمز والمقدّس(ضمن كتاب:الدين في عالمنا،تحت إشراف جاك دريدا وجياني فاتيمو) ،ترجمة:محمد الهلالي وحسن العمراني،الطبعة الأولى،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،المغرب،2004م،ص 91،92.

2 Gunar Myrdal: The Asian Drama,(4Vols) نقلا عن حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 222.

وأنجلز.وقبل هذا أرادت فلسفة الأنوار "الفرنسية بالخصوص" أن تبحث عن "ديانة العقل" ،الديانة ذات الخاصية التأليهية بشكل غامض،ديانة ملائمة لـ"الطبيعة الإنسانية"وللطبيعة بصفة عامة،والتي تتميز جذريا عن كل الحيل"الخرافية"،والتي لجأت إليها كل الطوائف الكهنوتية والمستبدون الأفظاظ للتحكم في الرعاع الجهلة. إن الدين ،باعتباره موضوع تجارب للعقل،تم اقتياده إلى محكمة العلم نفسها،محكمة العقل(أو محكمة جينيالوجيا إرادة القوة)،بهدف وحيد هو أن يفحص،ويستنطق،ويخضع للتجربة،ويخضع للتحقيق.[1]

لقد تشكلت نخبة عربية إسلامية تؤمن بمثل هذه الأفكار عن الدين والموقف منه،خاصة الإسلام،وعملت هذه النخبة بمساعدة بعض النخب الحاكمة على "...إحداث تحول حضاري شامل من خلال ثورة تغريبية.وقد افترض أصحاب هذا التوجه أن العقبة التي حالت دون تفهم المجتمعات الإسلامية لأسلوب الحياة الحديثة لم تنتج من التطبيق التاريخي الخاطئ للتعاليم الإسلامية فحسب،بل من التعاليم الإسلامية نفسها أيضا." [2]

غير أن "حسن حنفي " أطلق كلمة الإستغراب على معنى جديد جعله الوجه الآخر المقابل بل النقيض للاستشراق. فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور الآخر،فإن الاستغراب هو محاولة معرفية ترمي إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر،والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر...فالاستشراق القديم يعني رؤية الأنا الأوروبي للآخر غير الأوروبي،علاقة الذات الدارس بالموضوع المدروس.

1- المرجع نفسه،92،95

2- أحمد داود أوغلو:العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية،تعريب وتحرير ومراجعة:إبراهيم البيومي غانم،الطبعة الأولى،مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،1427هـ/2006م،ص 150.

لقد كان نتيجة لذلك أن نشأ لدى الأنا الأوروبي مركب العظمة من كونه ذاتا دارسا،كما نشأ لدى الآخر اللاأوروبي مركب نقص من كونه موضوعا مدروسا.أما في الاستغراب فقد أصبح الأنا الأوروبي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم،كما أصبح الآخر اللا أوروبي المدروس بالأمس هو الذات الدارس اليوم.إن مهمة الاستغراب هي فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر،والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي،مهمته القضاء على مركب النقص في عالمنا أمام الغرب،لغة وثقافة وعلما.إن الاستغراب يعبر عن قدرة الأنا باعتبارها شعورا محايدا على رؤية الآخر ودراسته وتحويله إلى موضوع.وهو الذي طالما كان ذاتا يحوّل كل آخر إلى موضوع.لكن الفرق هذه المرة هو أن الاستغراب يقوم على أنا محايد لا يبغي السيطرة،وإن كان يبغي التحرر من هيمنة الغرب والخلاص من آثار ثقافته وتشوهاتها في عالمنا.

فالاستغراب إذا، لا يهدف إلى تدمير الثقافة الغربية وإنما يهدف إلى تحليلها والتعرف على مكوناتها الأساسية ورد عناصرها إلى منابعها،ودراستها بعمق،بغية خلق مناعة ومقاومة وحساسية من تشوهاتها وبعض عناصرها التدميرية،وبالتالي تحصين الهوية الحضارية لأمتنا القاتلة في ثقافة الآخر،وحماية مجتمعاتنا من النزعات التدميرية في فكر الآخر وقيمه وتقاليده الجديدة.[1]

يأتي الحديث عن فكرة الاستغراب في إطار مشروع"التراث والتجديد"، ويتكون هذا المشروع من جبهات ثلاث:موقفنا من التراث، موقفنا من التراث الغربي، موقفنا من الواقع(نظرية التفسير)،ولكل جبهة بيان نظري.وتضم الجبهة الثانية المسماة بـ"موقفنا من التراث الغربي" العناصر الثلاثة الآتية:

1- حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 14،16.

1-مصادر الوعي الأوروبي.

2-بداية الوعي الأوروبي.

3-نهاية الوعي الأوروبي.

وقد تم التركيز على بنية الموضوع ذاته وهو الوعي الأوروبي أكثر من التركيز على مراحله التاريخية،العصر الوسيط(عصر آباء الكنيسة والعصر المدرسي المتقدم والمتأخر)،والإصلاح الديني وعصر النهضة،(القرنان الخامس عشر والسادس عشر)،والعقلانية والتنوير(القرنان السابع عشر والثامن عشر)والعلمية والوجودية(القرنان التاسع عشر والعشرون).

وتشير الجبهات الثلاث إلى جدل الأنا والآخر في واقع تاريخي محدّد[1].فالجبهة الأولى "موقفنا من التراث القديم" تضع الأنا تاريخها الماضي وموروثها الثقافي.والجبهة الثانية "موقفنا

---

1 حددّ حسن حنفي المشروع الثلاثي الجبهات من قبل منذ نصف قرن من الزمان منذ 1956م-1966م في رسائله الجامعية الثلاثة،"مناهج التفسير،محاولة في علم أصول الفقه"،تفسير الظاهريات،الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في ظاهرة الدين"،"ظاهريات التفسير،محاولة لتفسير وجودي للعهد الجديد".وهذه الرسائل الثلاث هي:

1-Les Méthodes d'Exégèse ,essai sur la science des fondements de la compréhension ,ilm Usul al-Fikh,Le conseil supérieur des arts, des lettres et des science sociales,Impremeriere nationale Le Caire,1965 .

2-L'Exégèse de la phénoménologie, Létat actuel de la méthode phénoménologique et son application an phénomène religieux,(paris,1966),Dar al-Fikr al-arabie,Le Caire,1976..

3-La phénoménologie de L'Exégèse, essai d'une Herméneutique existentielle à partir du Nouveau testament,(paris,1966), Dar al-Fikr al-arabie,Le Caire,1987.

من التراث الغربي" تضع الأنا في مواجهة الآخر المعاصر وهو الوافد الثقافي الغربي أساسا.والجبهة الثالثة"موقفنا من الواقع (نظرية التفسير)" فإنها تضع الأنا في خضم واقعها المباشر تحاول تنظيره تنظيرا مباشرا فتجد النص جزءا من مكوناته سواء كان نصا دينيا مدونا من الكتب المقدسة أو نصا شعبيا شفاهيا من الحكم والأمثال العامية.

ويشير "حسن حنفي" إلى أن الجبهات الثلاث ليست منفصلة عن بعضها البعض بل تتداخل فيما بينها، ويخدم بعضها بعضا.فإعادة بناء التراث القديم بحيث يكون قادرا على الدخول في تحديات العصر الرئيسية يساعد على وقف التغريب الذي وقعت فيه الخاصة. وهي لا تعلم من التراث إلا التراث المضاد لمصالح الأمة والذي أفرزته فرقة السلطان، فلم تجد حلا إلا في التراث الغربي. وأخذ موقف من الغرب يساعد المتغربين على أخذ موقف نقدي من التراث بدلا من الهروب إليه وعلى إعادة اكتشاف التراث القديم بدلا من الهروب منه.[1]

رابعا:الموقف من التراث الغربي

شكّل التراث الغربي أحد الروافد الرئيسة لوعينا القومي، وأحد مصادر المعرفة المباشرة لثقافتنا العلمية والوطنية، لقد كان الآخر حاضر ا في وعينا باستمرار، وكذا في موقفنا الحضاري. لم تحدث بيننا وبينه قطيعة إلا في الحركة السلفية، ولم تقم حتى الآن حركة نقد له إلا في أقل الحدود وبمنهج الخطابة أو الجدل دون منهج النقد ومنطق البرهان.

راجع:حسن حنفي:تأويل الظاهريات-الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في الظاهرة الدينية-،الجزء الأول،الطبعة الأولى،مكتبة النافذة،مصر،2006م،ص 5.

1 حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 27،32.

لقد أخذ الموقف من الغرب ومن "التغريب"بالرفض المطلق الانفعالي كنوع من الدفاع عن الذات وتأكيدا للهوية.إنا موقف الرفض صحيح من حيث المبدأ *De jure*،فلا بداية إلا من الأنا،ولكنه خاطئ من حيث الواقع *De Facto*،أي ترك الغرب كموضوع دراسة.وموقف القبول خاطئ من حيث المبدأ فعلاقة الأنا بالآخر علاقة تضاد وليست علاقة تماثل،ولكنه صحيح من حيث الواقع أي ضرورة التعلم والتعرّف على حضارات الآخر،بصرف النظر عن مصدرها ثم تمثلها واحتوائها وإكمالها.

إن الخلاف واقع بين الحضارتين الإسلامية والغربية:

فالأولى حضارة مركزية نشأت علومها انطلاقا من مركز واحد كدائرتين متداخلتين،الصغرى تمثل علم أصول الدين وتتعامل مع الداخل أساسا.والكبرى تتعامل مع الخارج أساسا،وهو الوافد ،تمثلا له في مواجهة الداخل الموروث وحماية له من الجمود والتقوقع على الذات.

أما الحضارة الغربية فإنها حضارة طردية أي أنها نشأت تحت أثر الطرد المستمر من المركز ورفضا له،بعد اكتشاف عدم اتساقه مع العقل أو تطابقه مع الواقع ثم إنشاء علوم عقلية وطبيعية وإنسانية تقوم على أدوات جديدة للمعرفة،العقلية أو الحسية،وابتداء من بؤرة جديدة وهو الإنسان.نشأت الحضارة الأوروبية كتطور صرف دون بناء. بمعنى أن الوعي الأوروبي من صنع التاريخ*Diachronique* في مقابل الإسلام الماهوي *Synchronique*.[1]

ويحدد "حسن حنفي "بنية الوعي الأوروبي في ثلاثية هي كالآتي:

1 حسن حنفي:ما ذا يعني علم الاستغراب؟،ص 33،36.

1–مصادر الوعي الأوروبي: وفيه الكشف عن مصادره المعلنة والخفية، المعلنة مثل المصادر اليونانية والرومانية والمصدر اليهودي والمسيحي، والخفية مثل المصدر الشرقي القديم والبيئة الأوروبية.وتمتد فترة تكوينه من القرن الأول حتى القرن الرابع عشر.

2–بداية الوعي الأوروبي:وفيه يتم الكشف عن بداية تكوين الوعي الأوروبي في عصر الإصلاح الديني وعصر النهضة في القرنين الخامس والسادس عشر ثم وضع البداية في الكوجيتو والعقلانية في القرن السابع عشر وانفجاره في التنوير والثورة في القرن الثامن عشر.

3– نهاية الوعي الأوروبي:وفيه يتم الكشف عن التحول الرئيسي في مسار الوعي الأوروبي من الأنا أفكر إلى الأنا موجود وبداية نقد الوعي الأوروبي لنفسه ونقد ماضيه وما وضعه بنفسه،نقد المثالية والوضعية واكتشاف طريق ثالث يضم "الفم المفتوح" ويغلقه في الظاهريات.

وقد عمل "حسن حنفي" في مشروعه النقدي للوعي الأوروبي، إجابة على سؤاله:ما ذا يعني علم الاستغراب؟ الذي وضعه كعلم جديد في مقابل "الاستشراق"،لبيان دوافع علم الاستغراب،والرد على المركزية الأوروبية،وضرورة التحول من نقل تجربته إلى إبداع تجربة أصيلة جديدة ،ثم بيان نتائج العلم المتوقعة.هذا من حيث هدف هذا العلم.

أما من حيث "تكوين الوعي الأوروبي"،فالاستغراب يهدف إلى دراسة تاريخيته كلها،مصادره،وبدايته ونهايته من أجل اكتشاف التكوين التاريخي لهذا الوعي والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية،الممثلة للحضارات البشرية.وهذا خلاف لمنهج الإسقاط الذي مارسه المستشرقون في دراستهم لحضارتنا.إنه البحث عن النقد من داخل أدبيات الفكر الغربي،والبحث عن بنية منظوماتها ومفرداتها...ذلك أن بناء أطر بحثية ونظرية متجددة تتوافق مع الظواهر موضوع البحث هي من الأمور الجادة والجديدة على حد سواء.وفي هذا

إجابة على سؤال هل الحضارة الغربية تعتبر نموذجا معرفيا كاملا لا يحتاج إلى إضافة ؟أم أنها ظاهرة بشرية كغيرها من الظواهر السابقة التي خضعت لسنة التبديل والتغيير والنقد والمراجعة ومن ثم التصويب.؟[1]

وفيما يخص "بنية الوعي الأوروبي" فان الدراسة تهدف إلى إحداث التحول من التكوين إلى البنية،وبيان العناصر الثابتة في "العقلية الأوروبية" التي تراكمت عبر التكوين والتي طبعتها بطابع خاص،وهذا خلافا للنزعة العنصرية التي وقع فيها المستشرقون،إذا يكون علم الاستغراب بعيدا عن العنصرية البيولوجية والشعوبية أو الحضارية،وتجاوز فكرة أن هذا الوعي هو خلق عبقري على غير منوال.[2]

أما "مصير الوعي الأوروبي" ففيه يتم استبصار مسار الوعي الأوروبي المستقبلي وتحديد مسار الآخر في تداخله وتقابله مع مسار الأنا في الجبهة الأولى وتبادل الأدوار عبر التاريخ بين المعلم والمتعلم،بين الأستاذ والتلميذ،فإذا كانت "مصادر الوعي الأوروبي "تمثل الماضي فغن "تكوين الوعي الأوروبي" و"بنية الوعي الأوروبي "يمثلان الحاضر.أما "مصير الوعي "الأوروبي" فإنه يعد المستقبل.فالوعي الأوروبي له بداية ونهاية.

ويشير حسن حنفي إلى وجود مادة مشابهة للاستغراب في الحضارة الأوروبية ظهرت في الآونة الأخيرة وذلك عندما بدأ الوعي الأوروبي يؤرخ لذاته ،يراجع نفسه،ينقد

1 سيف الدين عبد الفتاح:العولمة والإسلام رؤيتان للعالم، الطبعة الأولى،دار الفكر دمشق،1430هـ/2009م،ص 54 وما بعدها.

2 حسن حنفي:ما ذا يعني علم الاستغراب،ص 37،38.

مساره،[1] يكشف عن مصادره،يعترف بقلقه وتوتره،ويعبر عن حيرته المستمرة بين صورية فارغة ومادية غليظة حتى انتهى به الأمر إلى النسبية والشك في كل شيء،والى تكافؤ الأدلة والعدمية.غير أن الاختلاف واضح بين الاستغراب وبين نقد الوعي الأوروبي لذاته.ففي مادة الاستغراب تتم رؤية الغرب من منظور اللاغرب،ورؤية الآخر من منظور الأنا.فمادة الاستغراب أولى وليست جاهزة،نتيجة لوصف الأنا للآخر وليس وصف الآخر لنفسه تنقلها الأنا عنه،مادة من جهد الأنا وإبداعه وليست من إفراز الآخر وقيئه.مادة الاستغراب محلية صرفة من صنع الأنا وتنظيرها وتحديدها لعلاقتها بالآخر وجدلها معه وليست من نقد الآخر لنفسه ثم تقلّده الأنا وتستعير نقده لنفسه باعتباره نقدها وبالتالي تقلد الأنا حتى وهي

1 أصبح "الوعي الأوروبي" ظاهرة للدراسة،ولوحظ ذلك داخل الحضارة الأوروبية وخارجها....وقد تمت دراستها تحت بعض المؤشرات مثل "الأفول" أو "الأزمة" أو "الانتحار".وقد لاحظ الفلاسفة والدارسون ظواهر"أزمة الوعي الأوروبي" و"أفول الغرب" على مدى امتداد الحضارة الغربية كلها،منذ بداية القرن الماضي،وربما أعطت ساعة النهاية الوعي الأوروبي الإحساس بأنه يقوم بحسابه الأخير ويقدم لنفسه كشف الحساب.(حسن حنفي:تأويل الظاهريات الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه على الظاهرة الدينية،ص 10).

راجع أيضا:إدموند هوسرل:أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجية التربسندنتالية،ترجمة:إسماعيل المصدق،مراجعة جورج كتورة، الطبعة الأولى،المنظمة العربية للترجمة،بيروت،لبنان،مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،2008م،ص26.يحلّل هوسرل في هذا الكتاب أزمة المعنى والتوجهات في الثقافة الأوروبية في العصور الحديثة.فهو يرى أن النزعة "الموضوعية" التي تسيطر على هذه الثقافة تفهم العلم فهما ضيقا يقصي الأسئلة الحاسمة بالنسبة إلى الوجود البشري:أسئلة المعنى والغاية ،الحرية والتاريخ.وعليه لا يمكن الخروج من الأزمة إلا عن طريق إعادة ربط العلوم الحديثة بأساسها المنسي ،أي عالم العيش.

ترغب في التحرر وكأن التقليد أصبح روحها،تتوهم الحياة وهي تموت بالتفاف الآخر من جديد حول عنقها.[1]

ومن الفلاسفة الغربين المعاصرين الذي بدأوا في نقد الحضارة الغربية افيلسوف الألماني "**فريديريك نيتشه**" (**1844،1900**) ولخطة حضوره، التي أعلن فيها أنه إذا كان العالم مادة،والمادة متحركة،إذن لا ثبات في العالم،وإذا كان العالم متحركا إذن لا مطلق،وكل الأمور نسبية،وإذا كانت كل الأمور نسبية فكل الأمور متساوية،وإذا كانت كل الأمور متساوية فإذن لا معنى ولا أخلاق،وأي حديث عن المعنى أو الأخلاق فإنما هو أوهام، فالأخلاق والقيم مجرد أساطير ابتدعها بعض البشر بسبب فائدتها. ولا يوجد في داخلها أي حقيقة،بل الحقيقة في ذاتها أسطورة ابتدعها الإنسان.[2]

وهذا التصور في الحقيقة شكل نموذجا معرفيا في النسق الفكري الغربي،حذت العلوم جميعها حذوه،بحيث صارت العلوم مرجعية ذاتها، غير مؤمنة بأية مرجعية عليا خارج مرجعية الإنسان، أو الطبيعة المادة. وأصبح الاقتصاد له محددات اقتصادية،والسياسة لها محددات سياسية،والعقل يحدد ذاته، بمعنى أنه بدأ يفصل كل شيء عن القيمة،ولم يعد يتحدث عن مرجعية العلوم. وانتهى الأمر بأن اغترب الإنسان نفسه عن نفسه وعن بني جنسه،وعن الدين، وعن الطبيعة،وصار الاغتراب ذاته قيمة.

---

1 حسن حنفي: ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 38،41.

راجع أيضا:حسن حنفي:تأويل الظاهريات –الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في الظاهرة الدينية،ص 9،18.

2 عبد الوهاب المسيري: التيارات الفكرية الغربية المعاصرة، ص13

بل وبدأنا أخيرا نرى نقاد الأدب والفن يستخدمون كلمة " الاغتراب ***aliénation*** للتعبير عما يستشعره الإنسان الحديث من غربة كونية،وما يحسه من زيف الحياة وعقمها،وما يلحظه على علاقات الأفراد بعضهم ببعض من سطحية واستغلال ولا إنسانية، إلى آخر هذه المظاهر من الفساد والتفسخ الاجتماعي التي تستشري في عالمنا الحديث، بصورة أصبحت تهدد وجود الإنسان وصحته النفسية.[1]

أصبح الإنسان في العصر الحديث منفصلا انفصالا حادا لم يسبق له مثيلا، سواء عن الطبيعة أو المجتمع، أو الدولة، أو الله، أو حتى نفسه وأفعاله. وغير ذلك من الأسماء التي تطلق على كيانات هي بالنسبة إليه " آخر " لا سبيل إلى التواصل معه. فلم يعد قادرا على إقامة الجسور التي تصل بينه بين هذا الآخر المختلف المظاهر والمتعدد الأسماء، وأصبح بالتالي عاجزا عن تحقيق ذاته ووجوده على نحو شرعي أصيل.[2]

من هنا تأتي الضرورة إلى "...دراسة أزمة الحضارة الغربية في جميع أوجهها:فإذا كان الغرب قد حقق مطلقيته ومركزيته من خلال الانتصارات المعرفية والمادية في المراحل الأولى من ظهور النموذج العقلاني والمادي،فقد حان الوقت أن نعيد النظر في هذه الانتصارات والنجاحات ونبيّن نقط القصور التي ظهرت من خلال التطبيقات المختلفة لنموذجه المعرفي،خصوصا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر،وأن ندرس الأزمات الناجمة عن تبنيه وتطبيقه.ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن دعاة التغريب واللحاق بالغرب في عالمنا العربي لا يزالون يدورون في إطار عقلانية القرن الثامن عشر،وعلوم القرن التاسع عشر،ويكررون تفاؤل الغرب بخصوص مستقبله في الوقت الذي سقطت فيه عقلانية القرن

1- محمود رجب: الاغتراب " سيرة مصطلح" ط3، دار المعارف، مصر، 1988، ص5، 6.

2- المرجع نفسه،ص 6.

الثامن عشر وظهر مدى قصورها وتآكلت السببية البسيطة التي تستند إليها علوم القرن التاسع عشر،وتخلى كثير من المفكرين الغربيين عن تفاؤلهم بخصوص حضارتهم التي لم تعد تشعر بالثقة الكاملة بنفسها كما كانت تفعل حتى نهاية القرن التاسع عشر،وفقدت كثيرا من إحساسها بمكانتها الخاصة في التاريخ ومركزيتها وعالميتها." [1]

لقد وجدت رغبة كبيرة لدى الفكر الغربي في " استبعاد أي بعد إلهي، ميتافيزيقي، ترنسندتالي، معياري،عام وشامل. تمت صياغة لاهوت جديد هو " لاهوت موت الإله "(...) وصف العالم دون الله. (...) ولما تم تحطيم الآلهة، والقضاء على كل معيار عام وشامل لم يبق إلا النسبية في الطبيعة وفي الأخلاق، في الإنسان وفي العالم، وأصبح الإنسان مقياسا لكل شيء،وليس الإنسان العام الموجود في كل زمان ومكان،بل الإنسان المتغير الخاضع للأهواء الموجود في الزمان والمكان (...) قلب طرفي المعادلة وجعل الأدنى هو الأعلى والأعلى هو الأدنى، وهو ما سماه "**ماكس شيلر (1874–1928**) قلب القيم " (...) تدنيس الآلهة، وتقديس الأصنام. "[2]

لقد عملت المنظومة المعرفية الغربية على تطبيق مسلمات ومناهج العلوم الطبيعية على الظاهرة الإنسانية والظاهرة الدينية."ولكن الظاهرة الإنسانية –وهنا الظاهرة الدينية – لا تقبل مثل هذه المسلمات لأنها تتضمن إبعاد التعالي والغائية والذاتية،ولئن كان العقل الغربي قد ركّز اهتمامه منذ عصر النهضة الأوروبية على الأسباب والشروط المحددة لحدوث

1 عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيّز–المقدمة فقه التحيّز،ص 91.

2 حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 154،156.

الظواهر وأعرض عن بقية المباحث،فإنما كان ذلك نتيجة لانفصال الفلسفة الغربية عن الحياة."[1]

إن الحضارة الأوروبية أخلطت الفلسفة باللاهوت، وحوّلت الدين إلى بحث نظري خالص حتى أصبح الله هو العقل الشامل،يظهر من خلال الإنسان في تجربة ذاتية ويتحول إلى مثال كما تحول العالم إلى مثال. لقد استطاعت الحضارة الأوروبية تحويل الدين إلى علم شامل،والله إلى منطق،وأعطت لكل محتويات الدين معاني مستقلة يمكن التعبير عنها بصور خالصة كعلامة الجذر التربيعي في الجبر،فالله إذن هو العقل في التاريخ كما يقول هيجل،والتاريخ يحتوي على العلم الشامل.وهكذا يصف هوسرل الوعي الأوروبي وكان الله يقوم على رأس الجماعة الإنسانية،فالله هو عقلانية العالم والتاريخ معا تتحد فيها الذوات العاقلة من اجل انتصارها على الموت،يظهر الله من خلال الجماعة البشرية دليلا على كمالها،الله هو مسار الحقيقة في التاريخ وأن الإرادة الإلهية تتحقق من خلال تقدم التاريخ بقوانينه فلا فرق بين العناية الإلهية والتقدم البشري.من هنا يصبح البحث عن الحقيقة في الوعي الأوروبي بحثا نظريا خالصا. [2]

خامسا:الاستغراب في مواجهة التغريب

---

1 Biographie du 20e siècle (le testament philosophique de R, Garaudy »Ed, Tougui,Pari1985.p35,57.

نقلا عن: محسن الميلي: روجيه غارودي والمشكلة الدينية،الطبعة الأولى،دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،دمشق،1413هـ/1993م،ص 78.

2 حسن حنفي:تطور الفكر الديني الغربي-في الأسس والمنطلقات، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1425 هـ2004/م، ص 379، 378.

نشأ علم الاستغراب*occidentalisme* في مواجهة التغريب*westernisation* الذي امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتنا للعالم وهدد استقلالنا الحضاري بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة وفن العمارة.فالتغريب نوع من الاغتراب*Alienation* بالمعنى الاشتقاقي للفظ أي تحول الأنا إلى آخر.لقد استقلت الأوطان واحتلت الأذهان.وأن التحدي الأعظم الذي يواجهنا هو :كيف يمكننا المحافظة على الهوية دون الوقوع في مخاطر الانغلاق على الذات ورفض كل مساهمة للغير؟، وكيف يمكن مواجهة ثقافات العصر دون الوقوع في مخاطر التقليد والتبعية؟ كيف يمكن ترشيد العلاقة بين الأنا بالآخر وذلك بنقد مستنير،تتحول فيه علاقة العداوة بين الأنا والآخر إلى علاقة عالم بمعلوم،ذات بموضوع،دارس بمدروس،رائي بمرئي؟ [1]

سادسا :من الاستشراق إلى الاستغراب

يهدف "علم الاستغراب "إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر. فهو يسعى إلى قلب الموازين،وتبادل الأدوار،بمعنى يصبح الأنا الأوروبي الدارس للأنا الشرقي بالأمس إلى موضوع مدروس اليوم،ويصبح الأنا الشرقي المدروس بالأمس إلى دارس اليوم.وبالتالي تحول جدل الأنا والآخر من جدل الغرب واللا غرب إلى جدل اللا غرب والغرب.إن الغاية المرجوة من "علم الاستغراب"هو القضاء على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس،مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أما الغرب،لغة وثقافة

1 حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 42،49.

وعلما،مذاهب ونظريات وآراء،مما يخلق فيهم إحساسا بالدونية،وقد ينقلب إلى إحساس وهمي بالعظمة كما هو الحال في الثورة الإسلامية في إيران.

والفرق بين الاستشراق القديم والاستغراب الحالي هو خلاف في اللحظة التاريخية للحضارة الأوروبية التي نشأ فيها الاستشراق سابقا واللحظة التاريخية التي نشأ فيها "الاستغراب" الآن وهو على النحو الآتي:

1-ظهر الاستشراق إبان المد الاستعماري الأوروبي،في حين يظهر "الاستغراب" الآن في عصر الردة وبعد حركات التحرر،والشعوب مهزومة في مرحلة الدفاع.لذلك يظهر "الاستغراب" كدفاع عن النفس،والتحرر من عقدة الخوف تجاه الآخر،وقلب الموازين رأسا على عقب.

2-ظهر "الاستشراق" محملا بإيديولوجية ناهج البحث العلمي أو المذاهب السياسية التي كانت سائدة في القرن 19م من وضعية،وعلمية،وعنصرية،وقومية.في حين يظهر الاستغراب" في إيديولوجية مناهج علمية مخالفة مثل مناهج اللغة،وتحليل الخطاب،وتحليل التجارب المعاشة،ولإيديولوجية التحرر الوطني.

3-لم يكن الاستشراق محايدا بل غلبت عليه مناهج تعبر عن بنية الوعي الأوروبي التي تكونت عبر حضارته الحديثة مثل المناهج التاريخية،والتحليلية والاسقاطية،في حين أن وعي الباحث الآن في علم الاستغراب "أقرب إلى الشعور المحايد نظرا لأنه لا يبغي السيطرة أو الهيمنة بل ينبغي فقط التحرر من أسار الآخر حتى يوضع الأنا والآخر في نفس المستوى من الندية والتكافؤ.

والنتيجة ،هي أن مهمة "علم الاستغراب" هي إعادة الشعور اللا أوروبي إلى وضعه الطبيعي،والقضاء على اغترابه،وإعادة ربطه بجذوره القديمة،وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص

من أجل التحليل المباشر له،وأخذ موقف بالنسبة لهذه الحضارة التي يظنها الجميع مصدر كل علم،وهي في الحقيقة حضارة غازية لحضارة أخرى ناشئة تعيش عصر إحيائها ونهضتها.ومنه فالاستغراب بخلاف الاستشراق الذي وقع في التحيز المقصود إلى درجة سوء النية، يعبر عن قدرة الأنا المحايد الذي لا يبغي السيطرة بل يبغي التحرر. الاستغراب يهدف إذا،إلى معرفة الآخر تكوينه وبنيته ،بنزاهة وموضوعية وحيادية من أنا الاستشراق.,[1]

مهمة علم الاستغراب" هي القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة،لأن الاستشراق ينطلق من ثنائية المركز والأطراف والتي ستظل الثقافة فيه تعبر عن علاقة أحادية الطرف،من المركز إلى الأطراف،علاقة المعلم بالتلميذ،والسيد بالعبد،فالغرب هو المعلم الأبدي واللا غرب هو التلميذ الأبدي،فالاستغراب يهدف إلى القضاء على هذه الثنائية. بمعنى إعادة التوازن إلى الثقافة الإنسانية بدل هذه الكفة الراجحة ا للوعي الأوروبي والكفة المرجوحة للوعي اللا أوروبي.

إن مما يرمي إلى تحقيقه "علم الاستغراب" هو تصحيح المفاهيم المستقرة والتي تكشف عن مركزية الوعي الأوروبي من أجل إعادة كتابة تاريخ العلم من منظور أكثر موضوعية وحيادية وأكثر عدلا بالنسبة لمدى مساهمة كل الحضارات البشرية في العالم،هو مفهوم "العالمية". ومن أمثلة هذه المفاهيم الخاطئة:

تحقيب التاريخ في ثلاثة عصور وجعل أوروبا مواطنها:العصور القديمة'اليونان والرومان)،والعصور الوسطى (المسيحي واليهودي والإسلامي)،والعصور الحديثة.

وهذا التحقيب يدل على أشياء عدة نذكر منها:

---

1 حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟،ص 49،53.

-إلحاق الحضارات كلها بالتاريخ الأوروبي،فيضع حضارته في المركز،ويضيع التاريخ العام للحضارات البشرية جميعا.

-اعتبار الحضارات الأخرى غير الأوروبية مرحلة طفولة لم تبلغ درجة النضج والرجولة.

-الحضارة الإسلامية في الأصل لا تنتمي إلى العصر الوسيط المسيحي بل لها مسارها الخاص.وبالتالي فإن علم الاستغراب يهدف إلى إنهاء أسطورة كون الغرب ممثلا للإنسانية جمعاء،وأوروبا مركز الثقل فيه.تاريخ العالم هو تاريخ الغرب،وتاريخ الإنسانية هو تاريخ الغرب،وتاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلسفة الغربية،في الغرب يصب كل شيء. لكن الحقيقة هي عكس هذا الزعم،بمعنى أن وسيطنا هو حديثهم وحديثهم هو وسيطنا،وسقوط الغرب حاليا هو نهضتنا،ونهضتنا هو أفول الغرب. ينبغي على الباحثين والمفكرين أن يضعوا الحضارة الغربية في مكانها الطبيعي كمرحلة من مراحل تطور الإنسانية. [1]

الخاتمة

يمكن أن نخلص في نهاية هذا البحث إلى أن الأنا لا وجود له ،بنية وتشكيلا واستمرارا ،إلا بالحكم على الآخر،كشيء وموضوع للأنا الموجودة في وعي الآخر.هذا الأخير الذي كان الأنا موضوعا له تحت ما يسمى بالاستشراق ،كونه تصور الغرب للشرق، بما هو فضاء جغرافي ثقافي متميز.يدرس الإشكالات الفكرية،والاهتزازات المفاهيمية والاضطرابات الواقعية،والمفارقات الأساسية التي قام عليها التطور الحضاري للشرق،علميا وثقافيا وسياسيا وعسكريا.وطريقته في معاينة الآخر والتفاعل معه،ونمط العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية التي كانت يقيمها مع الآخر،و يعرض الغرب

1حسن حنفي: ماذا يعني علم الاستغراب،ص 64.

المنظومات الشرقية عرضا فكريا نقديا ،يمارس فيه فهم ذاته وفهم الشرق.وهذا الاستشراق هو بالأساس رد فعل غربي يريد من خلاله إلى كشف المكوّنات الجوهرية لمنظومة فكرية معينة:أنه يكشف جدلية فاعلية المعاين في المعاين،كما يكشف أيضا ،فاعلية المعاين في المعاين،بمعنى يقف على الطبيعة الثنائية للفاعلية بين الأنا والآخر.من هنا يصبح الاستشراق البنية الفكرية الغربية عن الشرق ممتلكا للخصائص التي عاينها في الشرق. وتصبح المعرفة بالشرق وشرقيته،جزئيا،شرقنة للذات والمنهج الغربيين. والنتيجة التي أفضى إليها الاستشراق هي أن الشرق لم يكن في وعي الغرب ،ذلك الخارجي فقط،بل امتدادا للشاذ والمنحرف والمجنون بلغة "ميشال فوكو"،امتداد للمستضعف داخل الغرب.

كما كان من نتائج الاستشراق تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الوعي والمخيال الغربي ،فمثلا عمل المستشرقون على الخلط بين الإسلام كعقيدة وشريعة ومنهج حياة وبين سلوكات وتصرفات وواقع المسلمين.فكتابات المستشرقين فيها كثير من الخلط بين الإسلام والمسلمين.ويفهم أمثال هؤلاء المؤلفين تراث المسلمين في الفكر والعمل والتعبير على أنه من مكوّنات الإسلام نفسه ،فالتمييز بين الإسلام وتاريخه يبدو معارضا لافتراضاتهم التجريبية واتجاههم الذهني.ويبدو أنهم لا يدركون أن الإسلام خلافا للمسيحية واليهودية،قد ولد مكتملا–مكتملا في رؤية نبيه،مكتملا في الوحي القرآني الذي تلقّاه ،ومكتملا في السنّة التي يمثّلها. وليس هذا بقول أحد من البشر، بل هو نص قرآني.

وهذا التصور المغلوط دفع بالمفكرين العرب والمسلمين إلى محاولة دراسة الغرب، وهو ما سمّي بالاستغراب، فأطلق "حسن حنفي" كلمة الإستغراب على معنى جديد جعله الوجه الآخر المقابل بل النقيض للاستشراق. فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور

الآخر،فإن الاستغراب هو محاولة معرفية ترمي إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر،والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر.

إنه يرمي إلى تصحيح المفاهيم المستقرة والتي تكشف عن مركزية الوعي الأوروبي من أجل إعادة كتابة تاريخ العلم من منظور أكثر موضوعية وحيادية وأكثر عدلا. بمعنى إعادة الشعور اللا أوروبي إلى وضعه الطبيعي،والقضاء على اغترابه،وإعادة ربطه بجذوره القديمة،وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص. وبالتالي تنفك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر. وبذلك تم التنبيه إلى ضرورة دراسة أزمة الحضارة الغربية في جميع أوجهها:فإذا كان الغرب قد حقق مطلقيته ومركزيته من خلال الانتصارات المعرفية والمادية في المراحل الأولى من ظهور النموذج العقلاني والمادي،فإن الوقت قد حان لإعادة النظر في هذه الانتصارات والنجاحات ونبيّن نقط القصور التي ظهرت من خلال التطبيقات المختلفة لنموذجه المعرفي،خصوصا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر،وأن ندرس الأزمات الناجمة عن تبنيه وتطبيقه. فالاستغراب إذا، لا يهدف إلى تدمير الثقافة الغربية وإنما يهدف إلى تحليلها والتعرف على مكوناتها الأساسية ورد عناصرها إلى منابعها،ودراستها بعمق،بغية خلق مناعة ومقاومة وحساسية من تشوهاتها وبعض عناصرها التدميرية،وبالتالي تحصين الهوية الحضارية لأمتنا القاتلة في ثقافة الآخر. ويكون الاستغراب إذن ب تجاه بديل لدراسة الحضارة الغربية ومسارها وتراثها ومعارفها من منظور شرقي،أو هو محاولة لدراسة الآخر من منظور الأنا،مثلما يعبّر حسن حنفي الذي أصبح أحد أبرز الداعين للاستغراب.

قائمة المصادر والمراجع

أولا:باللغة العربية

— أبو الحسن الندوي:الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

- أحمد داود أوغلو:العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية،تعريب وتحرير ومراجعة:إبراهيم البيومي غانم،الطبعة الأولى،مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،1427هـ/2006م.
- إدموند هوسرل:أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجية التربسندنتالية،ترجمة:إسماعيل المصدق،مراجعة جورج كتورة، الطبعة الأولى،المنظمة العربية للترجمة،بيروت،لبنان،مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،2008م،
- إدوارد سعيد:الاستشراق-المعرفة.السلطة.الإنشاء،ترجمة:كمال أبو ديب،الطبعة السادسة،مؤسسة الأبحاث العربية،بيروت،لبنان،2003م.
- إسماعيل الفاروقي،لويس لمياء الفاروقي:أطلس الحضارة الإسلامية،ترجمة:عبد الواحد لؤلؤة،مراجعة:رياض نور الله،الطبعة الأولى،مكتبة العبيكان،الرياض،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،1419هـ/1998م.
- أوجينيو ترياس: التفكير في الدين الرمز والمقدّس(ضمن كتاب:الدين في عالمنا،تحت إشراف جاك دريدا وجياني فاتيمو) ،ترجمة:محمد الهلالي وحسن العمراني،الطبعة الأولى،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،المغرب،2004م.
- تيمونز روبيرتس-أيمي هايت:من الحداثة إلى العولمة-رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعي، الجزء الأول،ترجمة:سمر الشيشكلي،مراجعة: محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة،العدد 309،الكويت، رمضان 1425هـ-نوفمبر 2004م.
- جان فرانسوا دورتيي(إشراف):فلسفات عصرنا-تياراتهامذاهبها،أعلامها،وقضاياها،ترجمة:إبراهيم صحراوي،الطبعة الأولى،منشورات

الاختلاف،الجزائر،الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت،لبنان،مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،*1430* هـ/*2009*م.

- حسن حنفي:تأويل الظاهريات-الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في الظاهرة الدينية-،الجزء الأول،الطبعة الأولى،مكتبة النافذة،مصر،2006م.
- حسن حنفي:تطور الفكر الديني الغربي-في الأسس والمنطلقات، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،*1425* هـ*2004*.
- حسن حنفي:ماذا يعني علم الاستغراب؟، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421 هـ-، 2000م.
- سيف الدين عبد الفتاح:العولمة والإسلام رؤيتان للعالم، الطبعة الأولى،دار الفكر دمشق،*1430* هـ/*2009*م.
- عبد الوهاب المسيري: التيارات الفكرية الغربية المعاصرة،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،القاهرة.
- عبد الوهاب المسيري:إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد-المقدمة فقه التحيز"،الطبعة الثالثة،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،هيرندن-فرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية،1418هـ/1998م.
- عزالدين الخطابي:أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية،الطبعة الأولى،منشورات الاختلاف،الجزائر،الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت،لبنان،مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،1430هـ،2009م.

- مالك بن نبي:التوجهات الاستشراقية وأثرها في تشكيل الفكر الإسلامي المعاصر،ترجمة:محمد أمزيان،مجلة المنعطف،العدد 18-19 السنة 1422هـ-2001م،وجدة،المغرب.
- مالك بن نبي:التوجهات الاستشراقية وأثرها على الفكر الإسلامي المعاصر،ترجمة:محمد أمزيان،مجلة المنعطف،العدد *18/19* السنة*1422* هـ،*2001*م،وجدة –المغرب.
- مالك بن نبي:الظاهرة القرآنية، ترجمة:عبد الصبور شاهين، الطبعة الرابعة، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق سوريا، *1987* م.
- محسن الميلي:روجيه غارودي والمشكلة الدينية،الطبعة الأولى،دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،دمشق،1413هـ/1993م.
- محمد أبو القاسم حاج حمد:العالمية الإسلامية الثانية-جدلية الغيب والإنسان والطبيعة-المجلد الثاني،الطبعة الثانية،دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،1416هـ،1996م.
- محمد البهي:الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.
- محمد المبارك:نحو إنسانية سعيدة أو حلقات من نظام الإسلام،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،دمشق.
- محمود رجب: الاغتراب " سيرة مصطلح" ط3، دار المعارف، مصر، 1988.
- مطاع صفدي:نقد العقل الغربي الحداثة وما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومي،بيروت،لبنان،1998م.
- نديم نجدي:أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر-إدوارد سعيد.حسن حنفي.عبد الله العروي،الطبعة الأولى،دار الفارابي،بيروت،لبنان،2005م.

ثانيا:باللغة الأجنبية

Biographie du 20e siècle (le testament philosophique de R, Garaudy »Ed, Tougui, Pari1985.

Danilo Martuceli,"Sociologie de la modernité», Folio; Essais;1999

Hasan Hanafi : L'Exégèse de la phénoménologie, L'état actuel de la méthode phénoménologique et son application an phénomène. religieux,(paris,1966),Dar al-Fikr al-arabie,Le Caire,1976..

Hasan Hanafi : La phénoménologie de L'Exégèse, essai d'une Herméneutique existentielle à partir du Nouveau testament,(paris,1966), Dar al-Fikr al-arabie,Le Caire,1987.

Hasan Hanafi : Les Méthodes d'Exégèse ,essai sur la science des fondements de la compréhension ,ilm Usul al-Fikh,Le conseil supérieur des arts, des lettres et des science sociales ,Impremeriere nationale Le Caire,1965 .